الباب الأول

إعجاز القرآن الكريم

obeikandi.c

الباب الأول

إعجاز القرآن الكريم

فى مطلع الحديث عن كتاب الله لا بد من تحديد عدد من معالمه الثابتة التى منها أنه كلام الله المعجز، الموحى به إلى خاتم الأنبياء والمرسلين بلسان عربى مبين، والمنقول عنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ نقلاً متواتراً بلا أدنى شبهة، بنفس النص الذى أوحى إليه، والذى نجده فى المصاحف التى خطت أو طبعت على مر العصور، ومسجلاً فى صدور الحفاظ جيلاً بعد جيل، ومن ثم على مختلف صور الأشرطة والاسطوانات الممغنطة، وعلى غير ذلك من مختلف صور الحفظ الحاسوبية المتعددة.

وقد نزلت آيات القرآن الكريم منجمة على مدى ثلاث وعشرين سنة، وكتبت فى حياة رسول الله ﷺ عقب الوحى بكل منها مباشرة، ثم رتبت تلك الآيات فى مائة وأربع عشرة (١١٤) سورة، وسميت السور بتوقيف من الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذى تعهد بحفظ آخر كتبه المنزلة فحفظه حفظًا كاملاً، بنفس اللغة التى نزل بها، كلمة كلمة، وحرفًا حرفًا، بينما تعرضت أصول الكتب السماوية السابقة كلها للضياع التام، وتعرض ما بقى من ذكريات عنها للتحريف والتبديل والتغيير.

ولذلك فالقرآن الكريم هو الكتاب السماوى الوحيد الذى يتعبد بتلاوته، والذى لا تصلح الصلاة إلا بقراءة فاتحته، والذى لا يغنى عنه شيء من الأحاديث أو الأذكار أو الأدعية؛ لأنه الوحى السماوى الوحيد الموجود بين أيدى الناس اليوم والمحفوظ بحفظ الله ـ تعالى ـ له كلمة كلمة وحرفًا حرفًا بنفس اللغة التى أوحى بها (اللغة العربية).

وقد تحدى ربنا ـ تبارك وتعالى ـ كلاً من الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن مجتمعين متظاهرين فقال عز من قائل: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

كما سخر ربنا ـ تبارك وتعالى ـ ممن ادعى من المشركين أن الرسول ﷺ قد افتراه، وهو النبى الأمى الذى لا يعرف القراءة ولا الكتابة لحكمة يعلمها الله، فقد تحدى الله – تعالى – العرب – على ما كانوا عليه من علم بأسرار العربية وأسباب البلاغة – أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، أو حتى بسورة واحدة من مثله، ولا يزال هذا التحدى قائمًا دون أن يستطيع عاقل مجابهته، على الرغم من مضى أكثر من أربعة عشر قرنًا على مجيء التنزيل، وعلى الرغم من قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣]. وفى ذلك يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝١٣ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [هود: ١٣ـ ١٤].

وقد عجزت القدرات البشرية، ولا تزال عاجزة عن أن تدانى كتاب الله فى روعة بيانه، أو فى كمال صفاته، ودقة دلالاته، وصدق أنبائه، وسمو معانيه، وعدالة تشريعه، أو فى نهجه وصياغته، وتمام إحاطته بطبائع النفس البشرية، وقدرته على التعامل معها وهدايتها، ودقة استعراضه لمسيرة البشرية، من لدن أبينا آدم ـ عليه السلام ـ إلى بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ـ عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكى التسليم – ومن هنا كان القول بـ«إعجاز القرآن».

من أوجه الإعجاز فى القرآن الكريم

تتعدد أوجه الإعجاز فى كتاب الله بتعدد جوانب النظر فيه، فكل حرف من حروفه، وكل كلمة من كلماته، وكل آية من آياته فيها إعجاز لفظى وبيانى ودلالى، وكل مجموعة من الآيات، وكل سورة من السور – طالت أم قصرت ـ تشهد لكتاب الله ـ تعالى ـ بأنه معجز بما فيها من قواعد عقدية، أو أوامر تعبدية، أو قيم أخلاقية،

أو ضوابط سلوكية، أو أحداث تاريخية، أو إشارات علمية إلى شيء من أشياء هذا الكون الفسيح وما فيه من ظواهر وسنن وكائنات. فكل تشريع، وكل قصة، وكل واقعة تاريخية، وكل وسيلة تربوية، وكل نبوءة مستقبلية، وكل إشارة تنظيمية، وكل خطاب إلى النفس الإنسانية جاء فى القرآن الكريم يفيض بجلال الربوبية، ويتميز عن كل صياغة إنسانية. مما يشهد للقرآن الكريم بالتفرد، كما يشهد بعجز الإنسان عن أن يأتى بشيء من مثله.

وقد أفاض المتحدثون عن أوجه الإعجاز فى كتاب الله، فكان منهم من رأى ذلك فى جمال بيانه، ودقة نظمه، وكمال بلاغته، وروعة معانيه وشمولها واتساقها ودقة صياغتها، وقدرتها على مخاطبة الناس على اختلاف مداركهم وأزمانهم، وإشعاعها بجلال الربوبية فى كل آية من آياته.. !! ومنهم من أدرك أن إعجاز القرآن هو فى كمال تشريعه، ودقة تفاصيل ذلك التشريع وحكمته وشموله، ومنهم من وجده فى استعراضه الدقيق لمسيرة البشرية ولتاريخ عدد من الأمم السابقة من لدن أبينا آدم ـ عليه السلام ـ إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ـ عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكى السلام ـ، مما لم يكن يعلم تفاصيله أحد من الناس فى زمن الوحى.

ومنهم من رأى إعجاز القرآن الكريم فى منهجه التربوى الفريد وأطره النفسية السامية والعلمية فى نفس الوقت، والثابتة على مر الأيام، أو فى إنبائه بالغيب مما تحقق بعد نزوله بسنوات طويلة، أو فى إشاراته إلى العديد من حقائق الكون وسنن الله فيه مما لم يكن معروفًا لأحد من البشر وقت نزول القرآن ولا لمئات من السنين بعد ذلك النزول.

ومنهم من رأى إعجاز القرآن فى صموده أمام كل محاولات التحريف التى قامت بها قوى الشر المتعددة متمثلة فى الكفرة والمشركين والملاحدة المتشككين على مدى الأربعة عشر قرنًا الماضية؛ وذلك لأن الله ـ تعالى ـ قد تعهد بحفظه فحفظ بعهده الذى قطعه- سبحانه وتعالى - على ذاته العلية بقوله العزيز: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ومن العلماء من يرى إعجاز القرآن فى ذلك كله وفى غيره مما يقصر الحديث عنه.

كانت الكثرة الكاثرة من القدامى والمعاصرين على حد سواء قد ركزت اهتمامها على ناحية نظم القرآن الكريم، فهذا ابن عطية الأندلسى (ت٥٤٦ هـ) يذكر فى مقدمة تفسيره (١/ ٢٧٨) ما نصه:

«إن الله قد أحاط بكل شىء علمًا، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن، علم بإحاطته أى لفظة تصلح أن تلى الأولى، وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر يعمهم الجهل والنسيان والذهول، ومعلوم ضرورة أن أحدًا من البشر لا يحيط بذلك، فبهذا جاء نظم القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة، وبهذا يبطل قول من قال: إن العرب كان فى قدرتهم الإتيان بمثله فصرفوا عن ذلك، والصحيح أنه لم يكن فى قدرة أحد قط، ولهذا نرى البليغ ينقح القصيدة أو الخطبة حولاً، ثم ينظر فيها فيغير منها، وهلم جرا، وكتاب الله لو نزعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم يوجد. . . وقامت الحجة على العالم بالعرب؛ إذ كانوا أرباب الفصاحة ومظنة المعارضة».

وهذا هو الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين يكتب فصلاً فى إعجاز القرآن كتقديم لترجمته لكتاب «الظاهرة القرآنية» للمفكر الإسلامى الأستاذ مالك بن نبى - يرحمه الله- يحدد فيه الإعجاز فى دائرة البيان والنظم حيث يقول: «إن الآيات القليلة من القرآن، ثم الآيات الكثيرة، ثم القرآن كله، أى ذلك كان فى تلاوته على سامعيه من العرب، الدليل الذى يطالبه بأن يقطع بأن هذا الكلام مفارق لجنس كلام البشر، وذلك من وجه واحد، هو وجه البيان والنظم. وإذا صح أن قليل القرآن وكثيره سواء من هذا الوجه، ثبت أن ما فى القرآن جملة، من حقائق الأخبار عن الأمم السابقة، ومن أنباء الغيب، ومن دقائق التشريع، ومن عجائب الدلالات على ما لم يعرفه البشر من أسرار الكون إلا بعد القرون المتطاولة من تنزيله، كل ذلك بمعزل عن الذى طولب به العرب، وهو أن يستبينوا فى نظمه وبيانه انفكاكه من نظم البشر وبيانهم، ومن وجه يحسم القضاء بأنه كلام رب العالمين. . ».

ولكن إذا جاز هذا التحديد على موقف التحدى من مشركى العرب ـ على الرغم من عدم وجود الدليل على ذلك ـ فإنه بالقطع لا يجوز على إطلاقه، خاصة

أن العرب اليوم فى جملتهم قد فقدوا الحس اللغوى الذى تميز به أسلافهم، وأن التحدى بالقرآن للإنس والجن متظاهرين هو تحدٍّ مستمر قائم إلى يوم الدين، مما يؤكد أن ما فى القرآن من أمور الغيب، وحقائق التاريخ، ومن فهم دقيق لمكنون النفس البشرية وحسن الخطاب فى هدايتها وإرشادها وتربيتها ومن مختلف الصور التى ضربت لعجائب آيات الله فى خلقه، ومن غير ذلك مما اكتشفه ولا يزال يكتشفه (فى كتاب الله) متخصصون فى كل حقل من حقول المعرفة، لا يمكن أن يبقى بمعزل عن ذلك التحدى المفضى إلى الإعجاز القرآنى، والدال على أن القرآن كلام الله.

نشأة منهج التفسير العلمى لكتاب الله

يزخر القرآن الكريم بالعديد من الآيات التى تشير إلى الكون وما به من كائنات (أحياء وجمادات)، وإلى صور من نشأتها، ومراحل تكونها، وإلى العديد من الظواهر الكونية التى تصاحبها، والسنن الإلهية التى تحكمها، وما يستتبعه كل ذلك من استخلاص للعبرة، وتفهم للحكمة، وما يستوجبه من إيمان بالله، وشهادة بكمال صفاته وأفعاله، وهو ـ سبحانه وتعالى ـ الخالق البارئ المصور الذى أبدع الخلق بعلم وقدرة وحكمة لا تحدها حدود، ولا يفيها حقها وصف.

وقد أحصى الدارسون لهذه الإشارات الكونية فى كتاب الله ما يقدر بحوالى الألف آية صريحة، بالإضافة إلى آيات أخرى عديدة تقرب دلالاتها من الصراحة، وبدوام اتساع دائرة المعرفة الإنسانية، وتكرار تأمل المتأملين فى كتاب الله، وتدبر المتدبرين لآياته ـ جيلاً بعد جيل، وعصراً بعد عصر ـ لا ينفك العلماء والمتخصصون يكتشفون من حقائق الكون الثابتة فى كتاب الله ما يؤكد على تحقق الوعد الإلهى الذى يقول فيه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ [فصلت: ٥٣].

وبديهى أن يتباين موقف العلماء من تلك الإشارات الكونية فى كتاب الله بتباين الأفراد وخلفياتهم الثقافية وأزمانهم، وباتساع دائرة المعرفة الإنسانية فى مجال

الدراسات الكونية (التى تعرف اليوم باسم دراسات العلوم البحتة والتطبيقية) من عصر إلى عصر، وأول من بسط القول فى ذلك كان الإمام الغزالى (ت٥٠٥هـ) فى كتابيه «إحياء علوم الدين» و«جواهر القرآن» والذى رفع فيهما شعارات عديدة منها أن القرآن الكريم يشمل العلوم جميعًا، وأن من صور إعجاز القرآن اشتماله على كل شىء، وأن كل العلوم تشعبت من القرآن، حتى علم الهيئة، والنجوم، والطب، إلى آخر ما ذكر.

وتبع الإمام الغزالى فى ذلك كثيرون، كان من أشهرهم فى القديم العلامة الإمام الفخر الرازى (ت ٦٠٦هـ)، وفى الحديث فضيلة الشيخ طنطاوى جوهرى (ت ١٣٥٩هـ)، مما أدى إلى بروز المنهج العلمى فى تفسير القرآن الكريم، والذى يعتمد فى تفسير الإشارات الكونية الواردة فى كتاب الله على ضوء من معطيات العلوم البحتة والتطبيقية، مع تفاوت فى ذلك من عصر إلى عصر.

ويعتبر تفسير الرازى المعنون «مفاتيح الغيب» أول تفسير يفيض فى بيان المسائل العلمية والفلسفية، خاصة ما يتعلق منها بعلم الهيئة، وغير ذلك من العلوم والفنون التى كانت معروفة فى زمانه، والتى كان هو على دراية بها.

أما تفسبير الشيخ طنطاوى جوهرى والمعنون «الجواهر فى تفسير القرآن الكريم» فيقع فى خمسة وعشرين جزءًا كبارًا، حاول فيها الشيخ ـ يرحمه الله ـ تفسير القرآن الكريم تفسيرًا يتجاوب مع روح العصر، وما وصلت إليه المعارف الإنسانية فى مجال دراسات الكون وما فيه من أجرام سماوية، ومن عوالم الجمادات والأحياء، ومن الظواهر الكونية التى تصاحبها، والسنن الإلهية التى تحكمها؛ ليبرهن للقارئ أن كتاب الله الخالد قد أحاط بالكون فى تفصيل وبيان وإيضاح غفل عنه كثير من السابقين، وأنه بحق ينطوى على كل ما وصل، وما سيصل إليه البشر من معارف.

هذا، وقد نعى الشيخ الجوهرى ـ يرحمه الله ـ على علماء المسلمين إهمالهم للجانب العلمى فى القرآن الكريم، وتركيز جهودهم على الجوانب البيانية والفقهية فقط بقوله: «لماذا ألف علماء الإسلام عشرات الألوف من الكتب فى علم الفقه، وعلم الفقه ليس له فى القرآن إلا آيات قلائل لا تصل إلى مائة وخمسين آية؟ فلماذا

كثر التأليف فى علم الفقه، وقل جدًا فى علوم الكائنات التى لا تكاد تخلو منها سورة؟». ولذا فإننا نجده فى مطلع تفسيره يتوجه بنداء إلى المسلمين يقول فيه: **«يا أمة الإسلام، آيات معدودات فى الفرائض (يقصد آيات الميراث) اجتذبت فرعًا من علم الرياضيات، فما بالكم أيها الناس بسبعمائة آية فيها عجائب الدنيا كلها.. هذا زمان العلوم، وهذا زمان ظهور الإسلام.. هذا زمان رقيه، ياليت شعرى، لماذا لا نعمل فى آيات العلوم الكونية ما فعله أباؤنا فى علوم الميراث؟»**، ثم يضيف: **«إن نظام التعليم الإسلامى لا بد من ارتقائه، فعلوم البلاغة ليست هى نهاية علوم القرآن بل هى علوم لفظه، وما نكتبه اليوم (يقصد فى تفسيره) علوم معناه....»**.

ولم يكتف الشيخ طنطاوى جوهرى فى تفسيره بتتبع الآيات واستنتاج معانيها وفق ما ارتآه فيها من إشارات إلى مختلف الدراسات الحديثة، بل إنه قد استعان فى هذا التفسير ـ الفريد من نوعه ـ بكثير من صور النباتات والحيوانات والظواهر الكونية، والوسائل التجريبية، كما استخدم الآراء الفلسفية عند مختلف المدارس الفكرية، وكذلك الأرقام العددية التى ينظمها حساب الجمل المعروف.

وقد اعتبر المفسرون من بنى عصره ذلك المنهج العلمى فى التفسير (كما اعتبر من قبل) جنوحًا إلى الاستطراد فى تأويل بعض آيات القرآن الكريم على غير مقاصدها التشريعية والإيمانية، استنادًا إلى الحقيقة المسلمة: أن القرآن الكريم لم يأت لكى ينشر بين الناس القوانين العلمية ومعادلاتها، ولا جداول المواد وخصائصها، ولا قوائم بأسماء الكائنات وصفاتها، وإنما هو فى الأصل كتاب هداية، كتاب عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملات، وهى ركائز الدين التى لا يستطيع الإنسان أن يضع لنفسه فيها ضوابط صحيحة، والقرآن العظيم حين يلفت نظر الإنسان إلى مختلف مظاهر هذا الوجود إنما يعرض لذلك من قبيل الاستدلال على قدرة الخالق العظيم وعلمه وحكمته وتدبيره، ومن قبيل إقامة الحجة البينة على الجاحدين من الكافرين والمشركين، ومن قبيل التأكيد على إحاطة القدرة الإلهية بالكون وبكل ما فيه، وعلى حاجة الخلق فى كل لحظة من لحظات الوجود إلى رحمة ذلك الخالق العظيم.

فهذا هو الشيخ محمد رشيد رضا ـ رحمه الله ـ يكتب فى مقدمة تفسيره «المنار» ما نصه: «. . . . وقد زاد الفخر الرازى صارخًا آخر عن القرآن هو ما يورده فى

تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة فى الملة على ما كانت عليه فى عهده، كالهيئة الفلكية اليونانية وغيرها، وقلده بعض المعاصرين (ويقصد الشيخ طنطاوى جوهرى) بإيراد مثل هذا من علوم العصر وفنونه الكثيرة الواسعة، فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية، فصولاً طويلة ـ بمناسبة كلمة مفردة، كالسماء أو الأرض ـ من علوم الفلك أو النبات و الحيوان، تصد القارئ عما أنزل الله لأجله القرآن».

وعلى الرغم من استنكار علماء التفسير لهذا المنهج العلمى قديمًا وحديثًا، إلا أن عددًا كبيرًا من العلماء المسلمين ظل مؤمنًا بأن الإشارات الكونية فى كتاب الله ـ أى الآيات المتعلقة ببعض أشياء هذا الكون على إجمالها وتناثرها بين آيات الكتاب المجيد ـ تبقى بيانًا من الله، خالق الكون ومبدع الوجود، ومن ثم فهى حق مطلق، وصورة من صور الإعجاز فى كتاب الله ـ الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ وأن ذلك قد لا يتضح إلا للراسخين فى العلم من المتخصصين فى مختلف مجالات العلوم البحتة والتطبيقية - كل فى حقل تخصصه -، وحتى هؤلاء يظل يتسع إدراكهم لذلك الإعجاز باتساع دائرة المعرفة الإنسانية جيلاً بعد جيل، وعصراً بعد عصر، مصداقًا لقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ **إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ** ﴾ [ص: ٨٧-٨٨].

ولقول رسول الله ﷺ فى وصفه للقرآن الكريم بأنه «. . . **لا تنقضى عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد**»(١).

ومن هنا كان واجب المتخصصين من المسلمين فى مختلف مجالات المعرفة الإنسانية ـ فى كل عصر وفى كل جيل ـ أن تنفر منهم طائفة للتسلح بمستلزمات تفسير كتاب الله من إلمام بقدر كاف من علوم اللغة العربية وآدابها، ومن الحديث وعلومه، والفقه وأصوله، وعلم الكلام وقواعده، مع معرفة بعادات المجتمع العربى الأول، وإحاطة بأسباب النزول، وبالمأثور فى التفسير، وبالسيرة النبوية المطهرة، وباجتهاد السابقين من أئمة المفسرين، وغير ذلك من الشروط التى حددها

---

(١) سبق تخريجه فى ص ١٤.

علماء التفسير وأصوله، ثم تقوم تلك الطائفة على شرح آيات الكتاب الحكيم - كلّ فيما يخصه - حتى تستبين للناس جوانب من الإعجاز فى كتاب الله، لم يكن من السهل بيانها قبل عصر العلم الذى نعيشه. وحتى يتحقق قول الله - تعالى - فى محكم كتابه: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٧].

وانطلاقًا من ذلك الفهم، ظهرت مؤلفات عديدة تعالج قضية الإعجاز العلمى فى كتاب الله من أشهرها فى القديم كتاب «كشف الأسرار النورانية القرآنية فيما يتعلق بالأجرام السماوية والأرضية والحيوانات والنباتات والجواهر المعدنية» لمحمد ابن أحمد الإسكندرانى الطبيب (وهو من علماء القرن الثالث عشر الهجرى).

ورسالة عبدالله فكرى (وهو من وزراء المعارف السابقين فى مصر فى مطلع القرن العشرين) والتى يقارن فيها بين بعض مباحث علم الهيئة (الفلك) وبين الوارد من نصوص القرآن الكريم فى ذلك، وكتاب «الإسلام والطب الحديث» لعبد العزيز إسماعيل، و«رياض المختار» لأحمد مختار (الغازى)، وكتاب «معجزة القرآن فى وصف الكائنات والتفسير العلمى للآيات الكونية» لحنفى أحمد، وكتابان «فى سنن الله الكونية» و«الإسلام فى عصر العلم» لمحمد أحمد الغمراوى، و«إعجاز القرآن فى علم طبقات الأرض» لمحمد محمود إبراهيم، و«العلوم الطبيعية فى القرآن» ليوسف مروة، وسلسلة كتب كلّ من محمد جمال الدين الفندى وعبد الرزاق نوفل فى نفس الموضوع، وكتاب «أضواء من القرآن على الإنسان ونشأة الكون والحياة» لعبد الغنى الخطيب، و«القرآن والعلم» لأحمد محمود سليمان، و«من إشارات العلوم فى القرآن الكريم» لعبد العزيز سيد الأهل، و«محاولة لفهم عصرى للقرآن» لمصطفى محمود، و«تفسير الآيات الكونية» لعبد الله شحاته، و«الإسلام والعلم التجريبى» ليوسف السويدى، و«القرآن تفسير الكون والحياة» لمحمد العفيفى، وكتاب «الإنجيل والقرآن والعلم» لموريس بوكاى، وكتاب «خلق الإنسان بين الطب والقرآن» لمحمد على البار، هذا بالإضافة إلى ما ظهر مؤخراً من كتب ومجلات عديدة وأبواب كثيرة عن الإعجاز العلمى فى القرآن وردت مُجَمَّعَةً فى كتب إسلامية متعددة، أو متناثرة فى كثير من التفاسير التى حررت فى النصف الأخير من هذا القرن.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد تعرض هذا المنهج ـ بحق أحيانًا، وبغير ذلك فى أحيان أخرى كثيرة ـ للمزيد من النقد والتجريح الذى أسس على أن معجزة القرآن هى فى الأصل معجزة بيانه الذى أدرك أساطين اللغة العربية فيه، ومنذ سماع أولى آياته، أنه علامة فارقة بين كلام الله وكلام البشر، وأن علينا أن نفهم الإسلام كما بينه نبى الإسلام ـ صلوات الله وسلامه عليه. وكان من شواهد ذلك ومبرراته حيود عدد من الذين تعرضوا للقضايا الكونية فى القرآن عن جادة الطريق إما عن قصور فى فهم الحقائق العلمية، أو انتفاء لشروط القدرة على الاجتهاد فى التفسير، أو لكليهما معًا.

وعلى الرغم من ذلك كله، فقد تمكن هذا السيل من الكتابات عن الإعجاز العلمى فى آى القرآن الكريم من تهيئة النفوس لقبول ذلك المنهج، حتى قام المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى مصر بتشكيل عدد من اللجان العلمية التى ضمت إلى علماء القرآن وتفسيره، والحديث ورجاله، والفقه وأصوله، والشريعة وعلومها، واللغة العربية وآدابها، والتاريخ وتفاصيله، عددًا من كبار العلماء والباحثين والمفكرين فى مختلف جنبات المعرفة الإنسانية، وقد قام كل هؤلاء بمدارسة كتاب الله فى اجتماعات طالت لسنين عديدة، تم تبلورت فى تفسير موجز تحت اسم «المنتخب فى تفسير القرآن الكريم»، كتب بأسلوب عصرى وجيز، سهل مبسط، واضح العبارة، بعيد عن الخلافات المذهبية، والتعقيدات اللفظية والمصطلحات الفنية، وقد أشير فى هوامشه إلى ما ترشد إليه الآيات القرآنية من نواميس الحياة وأسرار الكون، ووقائعه العلمية التى لم تعرف إلا فى السنوات الأخيرة، والتى خصها ذلك التفسير فى مقدمته بأنه لا يمكن إلا أن يكون القرآن قد أشار إليها لأنه ليس من كلام البشر، ولكنه من كلام خَلاَّق القوى والقدر، الذى وعد بذلك فى محكم هذا الكتاب فقال: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ [فصلت: ٥٣].

كما تمت الإشارة فى مقدمة هذا التفسير الوجيز إلى أنه سيتلوه تفسير آخر وسيط وتقوم لجنة الإعجاز العلمى للقرآن الكريم بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية منذ

عدة سنوات بمراجعة تلك التعليقات العلمية على الآيات الكونية فى كتاب الله على أمل إصدارها فى مجلد واحد ـ إن شاء الله تعالى ـ قبل إصدار طبعة جديدة لهذا التفسير المعنون باسم «المنتخب فى تفسير القرآن الكريم»، ويليه فى شىء من البسط والتفصيل «الوسيط» ثم «المفصل» بإذنه ـ تعالى .

حجة المعارضين لتعبير «الإعجاز العلمى» فى القرآن الكريم

قبل استعراض مواقف المفسرين فى عصرنا الحاضر من الآيات الكونية فى كتاب الله (أى الآيات التى تحتوى على إشارات لبعض آيات هذا الكون من مثل السماوات والأرض، والشمس والقمر، والنجوم والكواكب، والجبال والأحجار، والأنهار والبحار، والرياح والسحاب والمياه، والرعد والبرق، ومراحل الجنين فى الإنسان، وبعض صور الحيوان ومنتجاته، والنبات ومحاصيله وثماره وغير ذلك) لا بد لنا من الإشارة إلى أن بعض الكتّاب من القدامى والمعاصرين ـ على حد سواء ـ قد اعترض على استخدام لفظ «معجزة» ومشتقاته فى الإشارة إلى عجز الإنسان عن الإتيان بمثل هذا القرآن الكريم أو بشىء من مثله، أو إلى استعصاء تقليد القرآن الكريم على الجهد البشرى واستعلائه عليه؛ لأنه كلام الله ـ تعالى ـ المغاير لكلام البشر جملة وتفصيلاً، ولو أنه أنزل بأسلوب يفهمه البشر وقت نزوله وفى كل عصر من العصور التالية لنزوله إلى أن يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها .

وحجة المعترضين على لفظ «معجزة» ومشتقاته تقوم على أساس من أن اللفظ لم يرد له ذكر فى كتاب الله بالمعنى الشائع اليوم، ولا فى الصحيح من الأحاديث النبوية الشريفة، وإن وردت مشتقاته للدلالة على عدد من المعانى القريبة أو المغايرة قليلاً لذلك فى ستة وعشرين موضعًا من القرآن الكريم بألفاظ (أعجز)، و(معجزين)، و(معاجزين) و(عجوز) و(أعجاز) وتصريفاتها، ودلالات هذه الألفاظ فى تلك المواضع قد تبعد قليلاً عما أريد التعبير عنه بلفظ (المعجزة) عند علماء اللغة، خاصة أن القرآن الكريم قد أشار دومًا إلى مدلول المعجزة بلفظ آية (بصيغة المفرد والمثنى والجمع) فى أكثر من ٣٨٠ موضع منه، ومن هذه المواضع قول الحق، تبارك وتعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [الأنعام: ٣٧].

وقوله - عز من قائل - : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ [البقرة: ١١٨]

وقوله، تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

وقوله: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ [البقرة: ٢١١].

وقوله تعالى - على لسان أحد أنبياء بنى إسرائيل: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

وقوله - تعالى - على لسان نبيه صالح ـ عليه السلام ـ مخاطبًا قومه: ﴿... هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً....﴾ [الأعراف: ٧٣]. وقوله على لسان فرعون وقومه وهم يعارضون سيدنا موسى ـ على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم:

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢].

وهذه حجة مردودة ؛ لأن التعبير عن إعجاز القرآن قد استخدم منذ القرون الهجرية الأولى، ولم يجد علماء المسلمين من الصحابة والتابعين غضاضة فى استخدام هذا التعبير على الرغم من عدم وروده بهذا المعنى فى كتاب الله أو فى أحاديث سيدنا رسول الله ﷺ.

***